

حتمية التجديد المنهجي لعلم اجتماع الاستخدامات في ظل السياق الرقمي The Imperative of Methodological Renewal of The Sociology of Uses in the Digital Context

جمال بوشاقور

المدرسة الوطنية العليا للصحافة وعلوم الإعلام (الجزائر) bouchakour.djamel@ensjsi.dz

تاريخ الاستلام: 2023/04/14 تاريخ القبول: 2023/09/25 تاريخ النشر: 2023/09/30

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى توصيف أهم المناهج المستحدثة أو التي تم إعادة تكييفها في ظل التحولات الرقمية التي فرضتها الاستخدامات والممارسات السوسيو تقنية على مستوى شخصي أو مؤسسي. حيث دفع التعدد في الأنشطة الاجتماعية والتجارية في الفضاء الرقمي على الانترنت بالباحثين في ميدان العلوم الاجتماعية بشكل عام وفي حقل علوم الاعلام والاتصال بشكل خاص إلى حتمية البحث ومساءلة هذا الواقع عبر مقاربات كيفية وبتقنيات منهجية متعددة ومتكيفة مع معاشة وملاحظة وسلوك وردود أفعال الأطراف المختلفة أثناء استخداماتهم الاجتماعية للوسائط الاجتماعية الرقمية.

كلمات مفتاحية: التحول الرقمي؛ المقاربة المنهجية الكيفية؛ الاستخدامات الاجتماعية؛ الوسائط الاجتماعية الرقمية.

Abstract: This paper aims to describe and review the main methodological approaches that have been implemented in order to observe their adaptation under the effect of the digital transition and induced by the massive social uses of information and communication technologies. This new reconfiguration of individual and collective activities generated by online social practices, challenges researchers in social sciences and those in information and communication sciences in particular, to reconsider themselves more in relation to their theoretical and methodological references which will now be mobilized to question and observe the behavior of users and their relationship to the various socio-digital devices.

Keywords: digital transition, qualitative methodological approach, social uses, digital social devices.

تعتبر المنهجية موضوع في غاية الاهمية لأولئك الباحثين المهتمين والمشتغلين بمسائل معقدة وفي تجمد مستمر، تحتاج جانبا أو قسطا كبيرا من الإبداع في تجسيد إجراءات البحث.

ولهذا الغرض، يزداد الإلحاح اليوم في الابحاث التي تجرى في السياق الرقمي، أكثر من أي وقت مضى، على ضرورة مواجهتها برهانات متعلقة بدرجة اكبر بالمستوى المنهجي.

ولعل أن تطور وسائل الإعلام والاتصال (les médias) والتكنولوجيات الرقمية أحدث عدة تغييرات أو تحولات -وحتى نوع من المقاومة لهذا التغير والتحول- في حقل العلوم الاجتماعية والإنسانية لا سيما فيما يتعلق بالوصول إلى البيانات الرقمية وانشاء أدوات مناسبة لتحليلها.

ستحاول هذه الورقة البحثية انطلاقا من أدبيات ومرجعيات لأبحاث في حقل سوسيولوجيا وسائل الإعلام واستخدامات تكنولوجيا الاتصال من مسألة واقع البحث في هذا المجال بين تعدد الرؤى والمواقف المنهجية إزاء مواضيع بحث لها نشأة واستخدامات ورهانات رقمية بامتياز.

وانطلاقا من هذه الإشكالية، تتفرع مجموعة من التساؤلات التي ستساعدنا عي توضيح بعض المفاهيم المنهجية الحديثة. فهل يمكن الاكتفاء بإسقاط الطرق العلمية (المنهجية التقليدية) في دراسة مواضيع بحثية رقمية؟ كيف نميز بين المناهج الرقمية والمناهج الافتراضية والمناهج الحاسوبية من خلال تعاملها مع مجتمعات بحث غير متجانسة من حيث الخصائص والحجم؟

وللإجابة على هذه السلسلة من التساؤلات نقترح دراسة نموذج منهجي تطبيقي حول سوسيولوجيا الاستخدامات وتحليل الإجراءات التي تساعد على التحديد العلمي لموضوع بحث في سياق رقمي.

أولا: التطورات الهيكلية والتقنية في أبحاث علم الاجتماع

لقد حاولت العلوم الاجتماعية بشكل عام وعلوم الإعلام والاتصال بشكل خاص منذ عدة عقود التكيف مع منهجيات وتقنيات تتناسب وتتلاءم مع التطورات الحاصلة في القدرات الحاسوبية الكمية التي يوفرها الفضاء الرقمي من خلال تداول وتحليل البيانات. استطاعت هذه التطورات الحاصلة في البيئة الرقمية بدورها في بروز مواضيع وميادين بحث على غرار الإنسانيات الرقمية les humanités numériques وايضا دراسات خاصة بالويب web studies.

حتمية التجديد المنهجي لعلم اجتماع الاستخدامات في ظل السياق الرقمي

ومن أجل فهم هذه النقلة التي مست الأبحاث في ميدان العلوم الاجتماعية من الناحية الهيكلية من جهة والمنهجية والتقنية من جهة أخرى في ولوجها التدريجي إلى السياق الرقمي، يمكن التمييز بين ثلاث (03) أجيال (Boullier, 2015, 10)، يجسد كل جيل ميزات أساسية تميزت بها العلوم الاجتماعية من الناحية المنهجية والتقنية والموضوعاتية.

الجدول 1:

الجيل الأول	الجيل الثاني	الجيل الثالث
المجتمع / المجتمعات Concept du social	الرأي / الآراء Les opinions	الترددات / التغيرات Les vibrations
اليات جمع المعلومات	سبر الآراء sondages	قياس الاثر Traces
مبدأ التقويم Principe de validation	التمثيل La représentativité	تحديد الاثر
بناء البحث على اساس السجلات registres التحقيقات enquêtes	الجمهور audiences سبر الآراء	تتبع الاثر وتحليل الترددات
القائمين/ المشرفين على الابحاث الدول، الحكومات، المعاهد الوطنية	وسائل الاتصال الجماهيرية، معاهد الإحصاء	المؤسسات التجارية والعلامات، منصات التواصل الاجتماعية GAFAM
الاشكاليات الاساسية تقسيم العمل	الدعاية والتأثير وقياس الراي العام	تحليل البيانات عبر الويب، العلاقة بين العلم والتكنولوجيا
الرواد إيميل دوركهام	George Gallup, Paul.F. Lazarsfeld	Bruno Latour John Law
الأشكال الموظفة الجداول المتقاطعة والبطاقات الطبوغرافية	المنحنيات البيانية والدوائر النسبية	الرسوم الغرافية، لوحات التحكم dashboards المشاهدة التفاعلية والكرونولوجية للبيانات timelines
أدوات القياس الإحصاء	العينة échantillonnage	العد والحساب بالبرمجيات لعدد المنشورات/ التغيرات التفاعلات / التعليقات... وفق وحدات زمنية.
الغاية الاساسية من البحث التفسير	الفهم وبناء علاقات للوصف	بناء ارتباطات تنبؤية Corrélations prédictives

المصدر: Boullier, 2015, 3.

يسمح لنا هذا التصنيف من تحديد بعض الخصائص الاستيمولوجية في إنتاج المعارف في ميدان العلوم الاجتماعية.

ففي الجيل الأول الذي يمثل الفترة الممتدة من نهاية القرن التاسع عشر والجزء الأول من القرن العشرين، انطوت معالجة المواضيع البحثية تحت براديجم وضعي تفسيري وخطي مبني على علاقة سببية، وهذا الموقف يعود إلى حداثة البحث في العلوم الاجتماعية آنذاك وتأثرها بالطرق العلمية التي كانت تعالج وتسائل الظواهر العلمية الطبيعية والفيزيائية (الفيزياء الاجتماعية).

شهد الجيل الثاني من الأبحاث في العلوم الاجتماعية (منذ منتصف القرن العشرين) تحولا في موقفه الاستدلالي (الفهم، الوصف والتأويل) بفضل ظهور مدارس واتجاهات تهتم بمسألة المجتمعات الصغيرة والجماعات (التنظيم) la microsociologie بفضل المخابر الاجتماعية لجامعة شيكاغو الأمريكية. كما ساهم في هذا التحول المعطى التقني والإعلامي والحرب العالمية الثانية الذي خلق تعددا في المواضيع المدروسة (ظهور الإذاعة والتلفزيون، بدايات الانتشار الواسع للحاسوب ، دراسات التأثير والدعاية ، قياس تأثير الإشهار، سبر الآراء في السياق الانتخابي).

أما الجيل الثالث للأبحاث في العلوم الاجتماعية، فهو ذلك الذي نشأ وتطور ضمن مشروع / براديجم عالمي موسوم بالانتقال الرقمي على الصعيد المؤسساتي والاجتماعي والفردى والبحثي، الذي يسعى فيه الباحث إلى التعامل مع معطيات وعينات ضخمة عن طريق تقنيات حاسوبية وبرمجيات تتحرى عن الاثر وتهدف إلى الفهم والتنبؤ عن طريق الشبكات والمنصات والخوارزميات التي يتغنى بها الفضاء الرقمي.

ثانيا: خريطة تشخيصية لمناهج البحث في السياق الرقمي

لعل أن التسارع نحو التحول الرقمي الذي بدأ خلال سنوات الثمانينات، قد عزز التأكيد حول فرضية أن التكنولوجيات الرقمية تساهم في تغيير اسلوب عملية اجراء البحث العلمي (le processus de recherche) . إلا أن هناك اختلاف في وجهات الرؤى حول طبيعة المناهج المستخدمة تبعا لهذا التحول، حيث يدافع البعض عن تغيير منهجي جذري من الناحية الأنطولوجية والاستيمولوجية (Boullier,2015, p. 5)، في حين يفضل البعض الآخر تحيين للمنهجيات الموجودة خاصة التي تقوم على مقاربات كمية (Crawford et Boyd, 2011, p.

وفي هذا الصدد، يقترح الباحث Noortje Marres أربع توجهات منهجية أساسية في

ظل التحول الرقمي:

- (1) المناهج التقليدية traditionnelle/ as –usual
- (2) المناهج الحاسوبية computationnelles / big methods
- (3) المناهج الافتراضية virtual methods/ les méthodes virtuelles
- (4) المناهج الرقمية les méthodes numériques / digital methods

سنحاول التطرق إلى كل منهج لمعرفة توقعه من التجديد المنهجي على ضوء السياق الرقمي.

(1) المناهج التقليدية

تشير هذه الفئة إلى استخدام المناهج الكلاسيكية لدراسة الظواهر الاتصالية والاعلامية المنتجة والمستهلكة في سياق رقمي دون السعي إلى تكييفها معه، أي أنها تكتفي بإسقاط هاته الأساليب التقليدية على البيئة الرقمية حيث يقوم الباحث من أجل معالجة إشكالية مشاهدة المراهقين لمضامين فيديو عبر وسائط رقمية (Netflix et Youtube مثلا) بتوظيف تقنيات جمع المعلومات مثل المقابلة، توزيع الاستمارة، مجموعات المحادثة، السجل الزمني (le carnet de temps, groupe de discussion, entrevue, enquête par questionnaire) بهدف تحديد طبيعة أنماط مشاهدة المراهقين للمضامين السمعية البصرية على الخط (en ligne) وما مدى تأثيرها على نسج وتوطيد الطابع الاجتماعي على حياة المراهقين (Thoer et al, p.138) رغم محاولة بعض المحافظين في الإبقاء على هذا التوجه لدقته في حل بعض المشكلات العلمية المرتبطة بالتلقي والأنماط الاجتماعية التي تفرزها الوسائط الاجتماعية الرقمية، إلا أنه مع النمو التدريجي في حجم العينات المدروسة لا سيما من خلال المقاربات الكمية، أصبحت هذه المناهج التقليدية غير قادرة على معالجة وتحليل كل البيانات والمتغيرات المتعلقة بالظاهرة المدروسة في مجرد جداول بسيطة أو نسبيا مركبة.

(2) les méthodes computationnelles الحاسوبية

ترتبط المناهج الحاسوبية (big methods) بالوسائل المنبثقة من ميدان الإعلام الألي والرياضيات لدراسة واستغلال المعلومات التي تتيحها الميديا الالكترونية في تحليل النصوص الكتابية والشبكات ذات درجة واسعة من التشعب (Marres, 2012, p.149). يقوم هذا المنهج على تقنيات استخراج، تسيير ، تحليل ومشاهدة visualisation عينات واسعة من البيانات (big data) الناتجة من الواب ووسائل التواصل الاجتماعي.

(3) les méthodes virtuelles الافتراضية

يقصد بالمناهج الافتراضية تلك الابحاث التي تعتمد على منظور اثنوغرافي لدراسة الظواهر الاجتماعية والثقافية (socioculturelle) في السياق الرقمي، على غرار منتديات المحادثة لأشخاص ذوي كفاءة مهنية معينة أو مرض معين أو على منصات الألعاب المتصلة بالإنترنت (les plateformes de jeux en ligne).

لقد عرفت هذه المناهج الافتراضية - المتأصلة في تقاليد الأبحاث السوسيو أنثروبولوجية- شهرتها بفضل أعمال الباحثة Christine Hine مع بدايات القرن الواحد والعشرين. يمكن توضيح مبدأ هذه المقاربة على اساس أنها تقوم بتكييف المناهج الكيفية الكلاسيكية للعلوم الاجتماعية وخصوصا الاثنوغرافية مع البيئة الرقمية (Hine, 2015, 78). ويتعلق الأمر من الناحية الاجرائية بتكييف (adapter) الوسائل التقليدية المستخدمة في الابحاث الكيفية مثل الملاحظة سواء كانت بالمشاركة أو بدونها، المقابلة عن بعد أو في وسط مجتمع البحث، وأيضا التحليل اليدوي للنصوص (تحليل الخطاب، التحليل الموضوعاتي l'analyse thématique، تحليل المحادثات (analyse de conversation)، تحليل التفاعلات (les interactions)، والتحليل السيميولوجي، ليتم استخدامهم في بيئة رقمية.

من ميزات المقاربة الافتراضية الاثنوغرافية هي قدرتها على الدراسة المفصلة والمعقدة للممارسات الاجتماعية والمعاني التي يوليها لها المبحوثين، حيث سمح هذا التركيز الذي يضع النشاطات التي يقوم بها المبحوثين في سياقهم الطبيعي (المكان والزمان) من توضيح الطبيعة الاجتماعية المركبة للتفاعلات على الأنترنت وأيضا من استكشاف الاشكال الثقافية الجديدة التي تتشكل وتنشأ في هذا الفضاء (Hine, 2017, 33).

لقد عرفت الابحاث الافتراضية التي تبحث في العلاقات المتبادلة المتغيرة بين الوسائط الرقمية واستخداماتها (les dispositifs numériques et leurs usages) عدة تحولات من خلال 03 مراحل أساسية (Millerand et al, 2020, 80).

أ) تمحورت الأبحاث الإثنوغرافية الاولى حول المسائل المتعلقة بالهوية والتي تهدف إلى الكشف عن الطابع المميز للممارسات والاشكال الاجتماعية على الأنترنت.

ب) حاولت الأبحاث التالية من الانفراد عن سابقتها وهذا بالبحث في دراسة تسعى لإجراء مطابقة بين الاساليب المنهجية للأنشطة خارج الاتصال (hors ligne) على البيئة في حالة اتصال (en ligne)، كالحالة التي يقوم فيها الباحث بدراسة الكيفية التي تتحول بها السرديات الإثنوغرافية الذاتية للمبحوثين (les récit autoethnographiques) في وسطهم الطبيعي hors ligne وفهم تجلياتها وهم في البيئة الرقمية en ligne

ج) في مرحلتها الثالثة، حاولت الابحاث من وضع الظواهر الملاحظة في سياقها الفضائي التي تنشأ وتتطور فيه من خلال عدة ابعاد تدرج فيها الصور، الفيديوهات، الأشرطة الصوتية تزامنا أو مرفقة مع بيانات نصية تقليدية.

وأهم انتقاد وجه لهذه المقاربة (Rogers, 2009, p.45) هو محاولتها بتكليف المقاربات المنهجية الكيفية والإثنوغرافية الكلاسيكية في العلوم الاجتماعية وعلوم الإعلام والاتصال على الفضاء الرقمي وكأنه اعتراف ضمني بالمستوى أو البعد الثانوي للخصوصية الرقمية لهذا الفضاء.

(4) المناهج الرقمية les méthodes numériques

تسعى المناهج الرقمية (digital methods) لاستيعاب وفهم الظواهر الاجتماعية والثقافية كما تتجلى في الفضاء الرقمي en ligne، لكن بالاستعانة بأدوات أو وسائل مستمدة بطريقة مباشرة من البيئة الرقمية.

وكمثال على ذلك المقارنة بين مصادر الصحفيين حول المعلومات الصحية عبر مناطق جغرافية مختلفة بنفس محركات البحث أو الاحصائيات التي تقدمها خدمات Google Analytics، ليتم استخدامها لأهداف بحث علمي حول ممارسات الصحفيين في الاعلام المتخصص الصحي.

الميزة الاساسية لهذه المقاربة أنها تستعين بأدوات لها نشأة رقمية بحتة (nativement (Rogers, 2013) (numérique ou natively digital).

ثالثا: نموذج تطبيقي من منظور سوسيولوجيا الاستخدامات **sociologie des usages** :

تتمحور اشكالية الدراسة حول مدى رفض أو قبول الخوارزميات المعقدة التي تعتمد عليها المنظمات العملاقة **GAFAM** في ترتيب المعلومات التي يتعرض لها المستخدمون في نشاطهم الاتصالي أو الاعلامي عبر منصات التواصل الاجتماعي الرقمية ومحركات البحث (youtube, Google, Instagram..) على سبيل الحصر.

سياق بناء الإشكالية:

يقصد بهذه الخوارزميات سلسلة من الأوامر (instructions) تقوم على اساس تنظيم أو ترتيب معلومات انطلاقا من ترصد اثار المستخدمين وتخزينها وتصنيفها ليتم استغلالها في الحصول على نتائج بحث مستقبلية وزيادة احتمال ظهورها عند كل عملية بحث، لا سيما علة محرك البحث Google الذي يعتمد على خوارزميات تشخيص النتائج (la personnalisation des résultats) أو تصفح لموقع أو منصة من منصات التواصل الاجتماعي على غرار **Netflix, Amazon** (Cardon, 2015).

سمح تطور استخدام هذه الخوارزميات على نطاق واسع من طرف أهم المؤسسات العملاقة في الانترنت إلى تطبيقها في ميادين مختلفة كالعمل، السلوك الاستهلاكي، وتحديد طابع العلاقات الاجتماعية السائدة على شاشات الهواتف والأجهزة الذكية.

في هذا الصدد بدأ تبلور من منظور سوسيولوجيا الاستخدامات إشكالية تتمحور حول مدى توافق مصلحة المستخدمين لهذه المنصات مع مصالحهم الشخصية.

ولمعالجة هذه الاشكالية يمكن الاعتماد على دليل بحث يتوزع على ثلاث مراحل: الاشكالية / الملاحظة الميدانية وتحليل البيانات، ثم مرحلة التنظير.

الجدول 2: يمثل دليل بحث حول علاقة الخوارزميات بأنماط الاستخدامات الاجتماعية لمنصات

التواصل الرقمية حسب latzko-Toth

الأهداف	الاشكالية Problématisation	الوصف Description	التشظير Théorisation
-إعادة البناء النقدي للتعريفات المتعارف عليها حول الموضوع -إعادة تعريف موضوع البحث	-الإلمام بمختلف الظواهر السوسيوتقنية المرتبطة أو التي تندرج ضمن موضوع البحث	-خلاصة تعميمية على أساس وصف موضوع الدراسة -تفسير يوضح مختلف الرهانات الفردية، الاجتماعية، الاقتصادية والسياسية للإشكالية.	
الابعاد التي يتم ملاحظتها	- مراجعة للأدبيات - اليقظة -تحليل الخطاب المرافق للمظاهرة	-ملاحظات لنشاط المستخدمين -جمع تمثالتهم حول نشاطهم تحديد مختلف السياقات المرتبطة باستخداماتهم تحليل الإمكانيات التي تتيحها المنصات الرقمية	-الربط بين الملاحظات بالتحليل -المقارنة بأعمال تتكامل مع موضوع الدراسة - المقارنة مع اشكاليات من تخصصات علمية متداخلة أخرى.
شروط الصرامة	التراكم النظري دراسة المفاهيم المرتبطة بالبحث إعادة وضع الإشكاليات على المدى الطويل وفق دراسة الآليات السوسيوتقنية les dispositifs sociotechniques	الوصف تنويع في زوايا التوضيح للموضوع محل البحث استخدام منهجيات تكملية تحديد المتغيرات الثابتة والمستحدثة حول الاستخدامات الملاحظة	النتفح على النظريات والتخصصات إخضاع نتائج البحث (المسح، التحقيق) ومقارنتها مع نتائج أبحاث أخرى ربط الاستخدامات الملاحظة مع ممارسات اجتماعية على نطاق أوسع بناء هيكل مفاهيمي مركب على ضوء الزوايا التوضيحية المختلفة

المصدر : Alexandre coutant et al, 2020, p.63

المرحلة الأولى: تحديد الإشكالية والتعريف العلمي لموضوع الدراسة (définition scientifique de l'objet d'étude)

تتمثل الغاية من هذه المرحلة في ضمان أن يتم بناء موضوع الدراسة بعيدا عن الافكار السطحية والمخيلات الاجتماعية المرافقة للتكنولوجيات الناشئة التي غالبا ما تستحوذ على ذهن الباحث في بدايات مراحل البحث، كما تهدف لوضع حد فاصل (قطيعة) مع التوقعات أو الاتجاهات أو الخطابات التجارية، الإعلامية أو السياسية السائدة والمرتبطة بموضوع البحث.

فعلى سبيل المثال، حظيت مفاهيم الخوارزميات (algorithmes)، محركات التوجيه أو التوصية (moteurs de recommandations)، التشخيص أو شخصنة النتائج (la personnalisation des résultats) خلال سنوات 2013 بخطاب مرافق ركز على ذكر مزايا هذه التقنيات ودقتها، وأيضا قيمتها الاقتصادية بالإضافة إلى درجة تعقيداتها. لذا يتوجب على الباحث اليوم مثلا (2023) وضع قطيعة مع هذا الخطاب وإعادة تحديد المفاهيم بوضعها ضمن ممارسات اجتماعية تخضع لإعادة وتحديث التساؤلات ليس باعتبارها ظاهرة معزولة وإنما في ظل نسق عام أشمل (Lahire, 2006) بالعودة إلى مفهوم الخوارزميات كمفهوم يعني "ترتيب وتنظيم المعلومات (l'organisation de l'information).

كما تسمح مراجعة الأدبيات المطلع عليها من تحديد وتوجيه أكثر دقة للإشكالية نحو الرهانات الاتصالية وليس فقط نحو الاهتمام بالمضامين أو المحتوى ومعايير ترتيبه وتصنيفه.

المرحلة الثانية: الوصف والملاحظة الدقيقة للميدان

تعتبر هذه الخطوة في نظر الباحثين أهم انتقاد تم توجيهه لتيار سوسيولوجيا الاستخدامات، أي أن البحوث المنجزة ضمن هذا التيار كان تكتفي بالوصف الدقيق لحالة منعزلة، دون أن تضع مسبقا حسباننا في بناء الاشكالية رؤية خارج النطاق الداخلي للحالة المدروسة لاقتصاديات الاستخدامات (Jauréguiberry, 2008, p38) وبدون ربط توصيفاتها مع الظواهر الاجتماعية على مستوى أشمل (Jouet, 2011, p45) (macro sociaux). وفي هذه المرحلة، ينبغي على الباحث عند إجراءه للدراسة والمعاينة الميدانية:

أولاً: أن يحدد ويميز بدقة الفرق بين الاستخدامات المتوقعة (les usages prescrits)، والاستخدامات الممكنة تخيلها أو المحتملة (les usages imaginés) والاستخدامات الحقيقية أو الواقعية (les usages réels). (Jouet, 2011, p.65)

ثانياً: أن يحدد الأبعاد المكتملة التي ينبغي تحليلها على غرار التمثيلات التي يحملها المستخدمون إزاء نشاطاتهم حتى يفهم أو يستيعب الباحث مدلولات الاستخدام

ثالثاً: ملاحظة الممارسات التي تدخل ضمن العادات المتجذرة للمستخدمين، وكذا الخطابات المرافقة، والمعايير التي يبنى على أساسها المستخدمين شرعية لممارساتهم، وأيضاً تحديد مختلف الحالات أو سياق الاستخدام الذي يسمح بتكوين مدلول اجتماعي لاستخدامهم، والمحفزات أو المثبرات التي تتضمنها المضامين التي توفرها الوسائط الرقمية التي يتعرض لها المستخدمون، دون أن يتغاضى عن تحليل الاستراتيجيات الاقتصادية والسياسية للأطراف التي ترتبط مصالحها مع سياق الاستخدام.

يمكن تنظيم منهجية لملاحظة الميدان على ثلاث مستويات (De Certeau, 1980):

أ) المستوى الأول: تحليل وجمع المعطيات les données حول الاستراتيجيات الموضوعية مثل العروض المتوفرة أو المتاحة، الأرصيات والأجهزة (les interfaces et terminaux، تنظيم المعلومات واساليب التشغيل لهذه الوسائط (les fonctionnalités)

ب) المستوى الثاني تحليل الأنشطة actions من خلال تحديد سياق الاستخدام، تحديد مختلف التفاعلات بين الأطراف خلال الاستخدام وحتى خارج هذا الإطار (hors ligne)، مع ملاحظة كل الوظائف أو التشغيلات les fonctionnalités التي يرتبط أو يعتمد عليها المستخدمون أو تلك التي يتم الاستغناء عنها.

ج) المستوى الثالث: تحديد المدلول signification الذاتي أو الاجتماعي في كل الحالات المرتبطة بالاستخدامات، والمقصود بها تحديد الغاية من نشاط الاستخدام، درجة وعي المستخدمين، المعايير والقيم التي تحكم عملية الاستخدام والتفاعل، التمثيلات الذاتية والجماعية خلال نشاط المستخدمين.

تستدعي هذه المرحلة توظيف العديد من تقنيات جمع المعلومات والبيانات مثل الملاحظة بأشكالها المختلفة (عن بعد، بالمشاركة، الالكترونية)، التعود على الولوج إلى مواقع التواصل لمعرفة سلوك

وخطاب وأنشطة مختلفة للمستخدمين، تحليل الخطاب السيميولوجي للمنصات، وتتبع هويات التسجيل (suivis des logs)، البحث عن الخصائص والبيانات الشخصية الاجتماعية - الاقتصادية للمستخدمين حسب طبيعة كل منصة أو أرضية كمستخدمي linkedIn ومستخدمي Instagram .

كما تقتضي هذه المرحلة الاستعانة بدفتر تسجيل لمختلف أشكال الاستخدامات والممارسات الملاحظة، ومقابلات فردية أو جماعية أو تفسيرية، استخدام تقنية لعب الأدوار (le jeu de rôle)، سرد حياة المستخدمين (récit de vie)، وأيضاً منهج البورتريه (méthode des portraits).

نستنتج مما سبق، أن الهدف الأساسي من هذه المرحلة هو الحصول على تشعب أو عبارة أخرى، على أكبر قدر ممكن من الزوايا التي تسأل الاشكالية الاساسية والتساؤلات المتفرعة عنها. ولهذا فإن كل أداة أو تقنية منهجية يتم تبرير استخدامها في الاجابة على زاوية أو جانب من الإشكالية.

المرحلة الثالثة: التنظير

تقوم مرحلة التنظير على إجراء التقاطع بين مختلف الأبعاد الملاحظة حول موضوع الدراسة، حتى تسمح بتوضيح البنيات المركبة للرهانات الفردية والجماعية من الناحية الاقتصادية، السياسية والثقافية المرتبطة بالأشكال الراهنة للوسائط الاجتماعية-التقنية محل الدراسة.

وهنا يجدر بنا الاستعانة بمقارنة ما توصلنا إليه مع أعمال بحثية في تخصصات علمية أخرى تهتم بنفس الموضوع المدروس حتى يتسنى لنا الخروج من التصور الذي يتركز حول الوسيلة

(le médiacentrisme) والتوجه نحو مقارنة هذه الاستخدامات المحلية الفردية من خلال سياقات اجتماعية اشمل سواء كانت رقمية أو غير ذلك، اين يعتبر نشاط الاستخدام نسق فرعي ضمن حالة اشمل كروابط الصداقة، وتقاسم أو تشارك المضامين حول هوايات معينة مثلاً. أي أن انجاز هذه المرحلة النظرية يتم بالعودة والإياب وباستمرار إلى المراحل المذكورة سابقاً بواسطة جمع المعطيات - تحديد استراتيجيات أنشطة الاستخدامات والممارسات - والمدلولات التي يحملها المستخدمين كل حسب توقعه.

خاتمة:

سمح لنا هذا العرض التحليلي بالتطرق لبعض المقاربات المنهجية المستحدثة في العلوم الانسانية والاجتماعية والأبحاث في علوم الاعلام والاتصال التي فرضها سياق التحول الرقمي. ولعلّ أن الغاية من تدقيق الباحثين في معالجة الظواهر الاتصالية والاعلامية من خلال مقاربات كيفية زاد تعقيدا مع التسارع في تطوير الأليات الاتصالية المتاحة على مستويات مختلفة (في العمل، الاسرة، العلاقات الاجتماعية). لكن يبقى حسب تخصصنا المعرفي، أن الباحث في الظواهر الاتصالية هو الأكثر قربا وشعورا بهذا التعقد سواء كان ذلك على المستوى الأبستمولوجي أو الأنطولوجي أو المنهجي في تناول ظاهرة من أجل مساءلتها. وعليه، ومما سبق التطرق إليه، فإن مقارباتنا للمسائل البحثية في سياق التحول الرقمي في دراسات علم اجتماع الاستخدامات ستستدعي منا كباحثين اللجوء إلى ممارسة المزيد من اليقظة المعلوماتية المنهجية الرقمية والحاسوبية والافتراضية تدعيما للمنهجيات الكلاسيكية حتى يتسنى لنا إضفاء دقة أكثر في انتاج معارف علمية ترتبط أكثر فأكثر بالعلاقة إنسان-مجتمع-تكنولوجيا رقمية (les humanités numériques).

قائمة المراجع:

- BOULLIER, Dominique, « Les sciences sociales face aux traces du Big data », Revue française de sciences politiques, Vol 65, n° 5, 2015, p. 1-22.
- BOYD, Danah et Kate CRAWFORD, « Six provocations for big data », a decade in internet time : Symposium on the dynamics of the internet and society, 2011, p. 1-17.
- CARDON, Dominique, « A quoi rêvent les algorithmes, nos vies à l'heure du big data, Editions du Seuil, 2015.
- De CERTEAU, Michel, « l'invention du quotidien : Art de faire, Union générale d'édition, 1980.
- HINE, Christine, « Ethnography for the internet, embedded, embodied and everyday, Bloomsbury, Publishing, 2015.
- JAUREGUIBERRY, Francis et Serge PROULX, « Usages et enjeux des de communication », Eres, 2011.

- JOUET, Josiane, « Des usages de la thématique aux internet studies, dans Julie DENOUEL et Fabien GRANJON (dir), Communiquer à l'ère numérique, Regards croisés sur la sociologie des usages, Presse des mines, 2011, P. 495.
- MARRES, Noortje , « The issues deserve more credit, Pragmatist contributions to the study of public involvement in controversy », social studies of science, Vol. 37, n°5, 2013.
- LAHIRE, Bernard, « Nécessité théorique et obligations empiriques », Revue du MAUSS, Vol. 1, n° 27, 2006, P. 444-452.
- LATZKO-TOTH, Guillaume, Mélanie MILLETTE, « Small data, thick data, The handbook of social media research methods, Sage publication, 2017, P. 199-214.
- MILLETTE, Mélanie, Florence MILLERAND, « Méthodes de recherche en contexte numérique : une orientation qualitative, Les presses de l'université de Montréal, 2020.
- ROGERS, Richard, « Digital methods », The MIT, 2013